مُقَدِّمَة

جرت عادة الدارسين على تداول عدد من أسماء الروّاد الأوائل الذين رادوا حركة الاتصال بأوربا في القرن الماضي ـ التاسع عشر ـ على أنهم شاركوا في حركة «المقارنة» بين الأدبين العربيّ والأوربيّ ، أو بين الآدب بعامة . إذ يُذكر رفاعه الطهطاوي ، وعلي مبارك ، وأديب إسحاق ، ونجيب الحدّاد ، وروحي الخالدي ، وسليمان البستانيّ ـ لكن قليلاً من الدراسات هي التي توقفت عند إنتاج واحد من هؤلاء أو أكثر لتبيّن للناس الدور الحقيقي لهذا الرائد أو ذاك في هذا المجال الذي بين أيدينا ؛ الأدب المقارن ، أو ـ إذا شئنا الدّقة ـ قلنا : « المقابلة » بين الآدب أو«المقارنة» بينها(١) .

ولعلّ أقدم من تعرّضت له دراساتنا الأدبية نجيب الحدّاد « مقابلة بين الشعر العربيّ والشعر الإفرنجيّ » (١٨٩٧ م) . فقد ذكره عند الحيّ دياب في : التراث النقديّ قبل مدرسة الجيل الجديد » (١٩٦٨ م) ، ثم عبد العزيز الدسوقي في : « تطوّر النقد العربيّ الحديث في مصر » (١٩٧٧ م) . وهي وقفات تركّز على الجانب النقديّ من« مقابلة » الحدّاد .

وحظي روحي الخالديّ بنصيب وافر من الدراسات ؛ حيث أفرد له ناصر الدين الأسد محاضراته في معهد الدراسات العربية بالقاهرة عام ١٩٧٠ ، وجعل عنوانها : «محمد روحي الخالدي رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين» . وفي هذا الكتاب خصّص الأسد الفصل الرابع لكتاب الخالديّ « تاريخ علم الأدب بين الإفرنج والعرب وفيكتور هوكو » (١٩٠٤) ، وقد وقف الفقرتين : ثانيا وثالثا من الفصل لمقارنات الخالدي (ص ٧٨ ـ ٨٦) . كما أفرد هاشم ياغي ـ في محاضراته بالمعهد نفسه ١٩٧٣) والتي كان عنوانها : « حركة النقد الأدبي الحديث في فلسطين » ـ الفصل

---

(١) سيميز البحث بين المصطلحين : المقابلة والمقارنة بمعنى خاصٍّ لكلٍّ منهما ، على الرغم من شيوعهما معا في الكتابات الأولى وتبادلهما لمكانيهما .

الثالث كله تقريباً للكتاب نفسه ، مركزاً على تعداد الملاحظات التى لاحظها الدارسون على الكتاب (ص ٣٨ ـ ص ٤٣) .

ثم نشر حسام الخطيب الكتاب نفسه عن اتحاد الكتّاب الفلسطينين في دمشق (١٩٨٤ م) مقدِّماً له بدراسة كان قد قدّمها إلى « ملتقى الأدب العربيّ المقارن » بجامعة عنّابة بالجزائر (١٩٨٤م) ، مركّزًا فيها على ريادة الخالديّ للأدب العربيّ المقارن . ثم قدّم محمد برّادة بحثاً عن الخالديّ في ندوة النادي الأدبي بجدّة (١٩٨٨ م) التي كان عنوانها : «قراءة جديدة لتراثنا النقديّ» ، غلب عليها التناول النقديّ ، وفحص موقف الخالديّ من المصطلحات والمدارس النقدية في عصره.

و لم أجد من الروّاد من حظى بما حظى به الخالديّ من دراسة واهتمام إلاّ سليمان البستانيّ ، مترجم « الإلياذة » ، والذى قدّم لها تقديماً مستفيضاً (١٩٠٤) . ومن هذه الدراسات ـ على سبيل المثال ـ دراسة منيف موسى عن : « سليمان البستانيّ في حياته وفكره وأدبه » (١٩٨٤) ، والتى خصّص ما يقرب من نصفها لـ « سليمان البستانى معرِّب الإلياذة » (ص ٦٥ ـ ص ١٢٤) .

في حين اكتفى أحمد محمد البدوى ـ في دراسته « أوتار شرقية في القيثار الغربيّ » ١٩٨٩) ـ بالإشارة إلى كتابات يعقوب صرّوف وعبد الرحيم أحمد والخالديّ والبستانيّ ، في معرض مناقشته لطه حسين وبنت الشاطئ .

لايعنى هذا ـ بطبيعة الحال ـ أن الروّاد الآخرين الذين تعرّضنا لكتاباتهم لم يحظوا بهذا الاهتمام ـ مثله أو قريب منه ـ لكننى أعنى أن هذا الجانب من كتاباتهم ـ سواء كتابتهم النقدية أو المتصلة بـ « المقارنة » بين الآداب هو الذى لم يتوقّف عنده الدارسون كثيراً ، ليرسموا معالم إسهاماتهم واجتهاداتهم في هذا الجانب .

من هنا ، جاء توجهي إلى هذا الموضوع : متابعة إسهامات الروّاد جميعاً في هذا المجال ـ مجال « المقارنة » و « المقابلة » بين الآداب ، بدءاً من الرائد الأوّل رفاعة الطهطاوى في كتابه الرائد ـ كذلك ـ « تخليص الإبريز في تلخيص باريز » (١٨٣١م)، وانتهاءً بالمقدِّمة الطويلة التى كتبها سليمان البستانيّ لترجمته لإلياذة هو ميروس (١٩٠٤م) ، مروراً بعلى مبارك وأديب إسحق ويعقوب صرّوف ونجيب الحدّاد

وروحي الخالدي[1] ؛ لتجتمع جهودهم جميعاً من هذا المجال ـ ربّما للمرّة الأولى ! ـ في دراسة واحدة ، هي هذه الدراسة .

ولقد لاحظت الدراسة أن المصطلحين الشائعين في الكتابات التي تعرضت لها ، هما مصطلحا: المقابلة ـ في الغالب ـ والمقارنة ، أحياناً ـ بل لانعدم أن نجد ـ كما سنرى ـ أن مصطلح «الموازنة» يستخدم أيضاً ، وإن كان على ندرة . ولهذا آثرت الدراسة أن تميّز بين المصطلحين الأوّلين ـالمقابلة والمقارنة ـ كما ميّز الدارسون بين مصطلحي «المقارنة» و «الموازنة» . فمن المتعارف عليه أن «الموازنة» لا تستخدم إلا حين يكون النّصّان المُقابل بينهما في لغة واحدة ، وأما «المقارنة» فتكون بين نصّيْن ـ أو نصوص ـ من لغتين مختلفتين ـ أو لغات مختلفة . وبناء عليه فقد زادت الدراسة المصطلحات تخصيصاً ؛ ففي الكتابات التي تعرّضت الدراسة لها ، سنلاحظ مستويين :

الأوّل هو مستوى « المقابلة » العامة ، التي تبحث عن « الأفكار » أو «الأساليب» المتفقة أو المختلفة بين أدبين أو أكثر ، دون الالتفات إلى قضية تأثير أحد الأدبين في الآخر ، أو سابقهما في اللاحق . وآثر البحث أن يخصّ هذه الكتابات بمصطلح « المقابلة » وحده .

والثاني هو مستوى التناول التاريخيّ ، الذي ينصّ ـ في وضوح وصراحة ـ على تأثير أحد الأدبين في الآخر ، وقد يقف عند عوامل هذا التأثير ـ في الزمان والمكان والظروف التاريخية المختلفة ـ وحدوده ، ثم نتائجه ـ وطبيعيّ أن يطلق البحث على هذا المستوى اسم « المقارنة » ، من حيث كان هذا المستوى التاريخيّ ـ وما يزال ـ مناط اهتمام المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن ، وهي رائدة في هذا المجال ، من جهة، والمؤثرة الأولى على الكتابات العربية الأولى في هذا المجال ، من جهة أخرى .

من هنا جاء تقسيم البحث ـ بعد مدخل قصير في الأدب المقارن : تاريخه ومفاهيمه ـ إلى ثلاثة أقسام ؛ يتناول الأول منها : البداية ، كتابات كلّ من رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك . في حين يتناول القسم الثاني : مقابلات ، كتابات كلٍّ من يعقوب

---

(١) على الرغم من صدور ترجمة البستاني للإلياذة وكتاب الخالدي في عام واحد (١٩٠٤) وعن دار واحدة (الهلال بالقاهرة) ، فقد صدر كتاب الخالدي قبل ترجمة البستاني بشهور .

صرّوف ونجيب الحدّاد وسليمان البستانيّ . ثم يتناول القسم الثالث والأخير : مقارنتان ، كتابات كلٍّ من أديب إسحق وروحي الخالدي .

وسوف نلاحظ أنه يختلط في كتابات كلٍّ من الطهطاوي ومبارك والخالدي «المقابلة» و«المقارنة» معاً ؛ ولهذا أفرد البحث لكتابات الطهطاوى ومبارك قسماً خاصًا ، وأدخل كتاب الخالديّ في القسم الثالث لغلبة المقارنة عليه .

ولاتدّعى هذه الدراسة الإحاطة بما كتب في هذا المجال كلّه ؛ فربّما فاتها بعض ما طوته الدوريات القديمة بخاصة ، والتى كانت مصدراً لبعض مادة هذه الدراسة ، بخاصة كتابات يعقوب صرّوف التى نشرها في مجلّته « المقتطف » ، مع محاولاتى الدائبة ـ يشهد الله ـ فى أن أضع يدي على كلّ ما كُتب ونُشر في هذا الموضوع . ولا أذكر مالقيته من عنت في الحصول على كثير من هذه المادة ، سواء المنشورة في كتب أو تلك المنشورة في دوريات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ؛ فهذا «بعض» مما اعتاده الباحثون في عالمنا العربيّ !

وبعد ،

فهذا جهد المُقلّ ؛ إن أصاب ، فلله الحمد والمنّة ، ومنه ـ وحده ـ التوفيق ، وإن أخطأ فحسبه أن صاحبه بذله ـ بقدر طاقته ، ودون كلل أو ملل ـ مخلصاً وأميناً .

والله ـ وحده ـ من وراء القصد .

المؤلف